زاوية

الالتزام بدقة التعامل مع الهوية القومية والدينية أمر يمهد لأرضية العراق المنشود

الدكتور تيسير عبد الجبار الآلوسي

ظلت إحصاءات الأمس التي جرت في بلادنا خاضعة لرؤى الحكومات المتعاقبة وفسلفاتها وتوجهاتها التي غالبا ما كانت متحيزة بل معادية لمصالح مكونات شعبنا بهذه الطريقة أو تلك. وقد جاءت في غالب الأحوال عابثة بالحقائق مزورة إياها مشوهة توصيفات الهوية الحقيقية لتلك المكونات..

ولقد شهدنا كيف كانت تلك السلطات تتعمد تسجيل هوية قومية مخالفة لحقيقة ما عليه أبناء الرافدين كتسجيل الكلدان السريان عربا وكتسجيل تغييرات القومية من الكرد ومن التركمان ومن غيرهما إلى العربية، في نزعة شوفينية واضحة.. وفي استهداف بيّن لتغيير التناسبات السكانية في سابقة واضحة تتجاوز فيها على حقوق القوميات والأثنيات والديانات في بلادنا

إنَ مثل هذه القضية يجب في عراقنا الجديد إعادة النظر فيها جذريا بما يلغي كل محاولة لتشويه الحقائق وحرفها أو تغييرها سلبيا. وينبغي قطع الطريق على محاولات تشويه النسب السكانية في بلادنا لمصالح طرف أو مكوّن من مكونات على حساب الآخرين جميعا.. وعليه فلابد من تسجيل مفردات التشخيص وقراءة الهوية قراءة دقيقة توصّف مرجعية أو انتماء الفرد بطريقة دقيقة..

بخاصة تدقيق تسجيل مسائل الانتماء القومي والديني والمذهبي وهذا ليس دفعا لتمكين الانقسام بل قراءة علمية ستساعد بالتأكيد في حسم المواقف التي تزعم افتراضات لتنطلق منها نحو تكوين رؤى سياسية وفكرية معينة عادة ما أدخلتنا في صراعات مفتعلة وفي احتلافات مختلقة بخصوص التناسبات وبخصوص قراءة الواقع والوقائع..

ولابد من معالجة مسائل أكثرية وأقلية في ضوء ما تقرأه الإحصائيات معالجة موضوعية علمية دقيقة وبالأرقام الصحيحة الدقيقة. كما لابد من الانتهاء من مشكلة مفتعلة لإشكالية أو قضية أكثرية وأقلية وما ينجم عنها من مثل مفهوم الأقليات القومية أو الدينية ومن ثمَ إلحاق تلك الأقليات بالأكثرية بإكراهها على الخضوع لقوانين (الأغلبية)!؟

كما لدينا مستهدفات من وراء الإحصاء السكاني الدقيق الذي يتعامل مع قضية تسجيل القوميات تسجيلا رقميا دقيقا ستخضع لها قراءات مستقبلية مهمة من مثل مسألة إحصاء الكرد ليس بوصفهم أقلية بل بوصفهم الحليف الشريك في الوطن في فديرالية العراق الديموقراطي الجديد، ومن ثمَ بوصفهم أصحاب حق في تقرير المصير حيثما جاءت اللحظة المناسبة لاتخاذ قرارات جذرية مستقبلية مختلفة عن الظروف التي تفترض اليوم وجودهم في مثل هذا التحالف وهو تحالف استراتيجي ولكنه قد يختلف طبيعة مغايرة مستقبليا..

وعليه فلابد من تحقيق إحصاء دقيق في تسجيل القومية الكردية لكل شخص يسجل انتماءه هذا بخاصة منهم أولئك الذين أكرهوا يوما على تغيير قوميتهم وانتمائهم ما يمنحهم حقهم اليوم في استعادة هويتهم الحقيقية. كما لدى كل فرد من القوميات المكوّنة لشعبنا العراقي أنْ يسجل تاريخه الصحيح من جهة السكن والعيش حيث جرت عمليات التهجير والتغييرات الديموغرافية لمقاصد عدوانية معروفة..

وهنا سيكون من حق الإدارة البحث في تدقيق المعلومات وأشكال الدعم والتحقيق والمستندات التوكيدية آنيا ولاحقا.. ولكننا يجب أنْ نبحث في الاستجابة في زمن الحريات والحقوق لمطالب جمهور العراقيين وحسب هوياتهم وحقوقهم في توكيدها وفي الوقت نفسه ضمان تأكيد التدقيق في كل معلومة واردة ومسجلة

ولكن الأكيد هو وجوب تسجيل الحقائق على أرضية من التفاعل مع الوقائع الجديدة المؤيدة بالوثيقة والشهادة الصادقة..

وفيما يخص الكرد بالتحديد وإقليم كردستان والانتماءات القومية الأخرى ومن دون استصغار أو تهميش أو عزل أو إقصاء واستبعاد، علينا بخصوص الإحصاء تحقيق الآتي:-

أولا:- تأكيد تسجيل كل شخص حسب انتمائه الحقيقي الذي يسجله بنفسه وبإرادته الحرة غير المضغوط فيها عليه..

ثانيا:- التعامل موضوعيا وجديا وإيجابيا مع حالات تغيير الهوية القومية بخاصة أولئك الذين أكرهوا على تغييرها في ظل نظام الطغيان والتخريب والعبث بمصائر أبناء شعبنا العراقي وقومياته المتآخية المتحالفة وممارساته في إكراه بعض الكرد على تغيير قوميتهم وما شابه من ممارسات.

ثالثا:- تسجيل تاريخ دقيق لأماكن السكن والإقامة والعيش السابقة بخاصة ما يتعلق بالكرد المهجرين داخليا ويشمل هذا بقية أبناء القوميات العراقية.

رابعا:- تسجيل معلومات في حقول إحصائية تخص التغييرات والتشويهات بالإكراه ما يساعد في قراءة دقيقة ثابتة لمجريات وقائع كل مشكلة ومنها بالتحديد التغييرات الديموغرافية المتعمدة، وتسلسل ما حصل وتاريخه ورغبة التعديل وما إلى ذلك..

خامسا:- وضع كل المفردات التي تمهّد لاستعادة الأوضاع الطبيعية أو إعادة تطبيع العلاقات بين مكونات شعبنا والبحث في آليات منع الافتعالات لمشاكل لا توجد بين أطياف شعبنا ولكنها كانت توجد لدى قوى النظام الدكتاتوري ولدى قوى التخريب المندسة بيننا اليوم وربما غدا..

سادسا:- لابد من خصوصية في التعامل مع أقاليم العراق وطبيعة الإحصاء فيها بخاصة ما يتعلق بإقليم كردستان والمقصود بهذه الخصوصية هنا كل ما يستجيب لمفردات الواقع وهويته وتفاصيله الديموغرافية وغيرها..

سابعا:- لابد من الإشارة هنا إلى أنَ هذه المقالة تركز على خصوصية الكرد ولكنها لا تنسى التأكيد على التنوع العراقي القومي. ولذا فهنا يجب أنْ نشير إلى الحق إفراد مقالة لدراسة الواقع القومي وما ينتظر من معالجات شاملة بقدر تعلق الأمر بخصوصية كل مجموعة من مجموعات أو مكونات الطيف العراقي.. بالإشارة إلى الكلدان الآشوريين والتركمان والأرمن وإلى الصابئة المندائيين واليزيدية وإلى مفردات تعددية أخرى لا يمكن التجاوز والتغافل عنها أو عليها..

أما نتائج مثل هذا التفاعل الإيجابي فستأتي بمزيد من تعزيز وحدتنا الوطنية وستأتي بمزيد من تبادل الثقة والمسيرة المشتركة والتلاحم الذي يصب في إعادة إعمار عراق جديد ديموقراطي تعددي فديرالي موحد.. وسيكون من دواعي قراءة موضوعية كهذه التعبير الساطع عن استعادة قيمنا الحضارية ورفد وجودنا بما يعكس حقائق واقعنا التعددي القومي والديني الأثني العرقي المذهبي بكل تفاصيله..ومن الطبيعي لن يتحقق ذلك بأية تجاوزات قد تحصل لتعمد طرف متسلل إلى الجهاز الإحصاء الحكومي والأجهزة التنفيذية المتعلقة من بقايا النظام القديم أو لأخطاء قد تحصل لإهمال أو تقصير أو غير ذلك ولكننا بحاجة لتذكير أنفسنا باستمرار بما يستجيب لإظهار الواقع على ما هو عليه من دون قصور أو تشويه أو أخطاء لأية أسباب محتملة.لذا كان من المفيد اليوم قبل الغد مناقشة مثل هذه المتعلقات والتفاعل مع وضع الأرضية المناسبة على صعيد الصياغة ومفردات الاستمارات الإحصائية المنتظرة على أنْ ينهض بالأمر متخصصون من أبناء القوميات والهويات الأثنية العراقية بكل الأطياف وتعاد دراسة مثل هذه المفردات حتى تستقر على الوضع الأنسب والأجود أو الأفضل بما يحقق المستهدفات المناسبة أو المستجيبة ليس لأقليات أو ما شابه من تسميات ماضوية سلبية بل لوجود تحالفي عراقي بين قوى متكافئة متعاضدة متعاونة متناصرة جناحاها الكرد والعرب في فديرالية العراق الديموقراطي..

قبل الحرب، بعد الحرب..

ثنائية القمع والحرب قبل غزو الكويت

(٢-٢)

زهير الجزائري

سيناريوهات الخوف

★ ان تستثمر الولايات المتحدة الجو الجديد لفرض المزيد من الخوف على المنطقة وتجد بالتالي استجابة ممن سماهم في خطابه هذا ب (المرتجفين) الذين سيذعنون للارجحية الامريكية ويتجاوبون معها.. وبالاستناد الى ركائز عربية تستطيع الولايات المتحدة اختلاق اسباب لتوجيه ضربة للعراق. وقد كان المثال البنمي الذي انتهى باعتقال نورييغا حاضرا في خطاب صدام في هذه القمة الرباعية. ولذلك سينقلب موقف النظام من الوجود العسكري الغربي في الخليج بمقدار ١٨٠درجة تبعا لحساسية النظام الامنية.. ففي مراحل الحرب الاخيرة مع ايران رحب النظام العراقي بدخول القوات الامريكية والبريطانية والفرنسية الى الخليج لحماية ناقلات النفط الكويتية. وقد عبرت جريدة الحزب (الثورة) عن هذا الترحيب في ٢٠ - ٨ - ١٩٨٧ (ومهما كان راينا في اصحاب هذه الاساطيل فان هؤلاء دول منضبطة يمكن التفاهم والتعامل معها بالوسائل السياسية والدبلوماسية ووفق قواعد القانون الدولي. فالمنطقة ليس لها خيار في ذلك) وهاجمت الصحافة العراقية الاتحاد السوفياتي لانه اعلن موقفا ضد التدخل. ولكن وجود هذه الاساطيل رغم انخفاض العدد بدا يشكل هاجسا امنيا مقلقا. لذلك ركز في خطابه هذا على ان بقاء القوات الامريكية في الخليج بعد انتهاء الحرب مع ايران (أصبح غير مفهوم).وحذر العرب من ان بقاء هذه القوات (ان لم ينتبه ابناء الخليج ومعهم العرب ستصبح محكومة بالارادة الامريكية).

والخطر الثاني هو ان تقوم اسرائيل، وقد اعلنت على لسان مسؤوليها عن القلق من تنامي القدرة العسكرية العراقية، بتوجيه سلسلة ضربات، على غرار الغارة على مفاعل تموز النووي العراقي، ضد ركائز القوة والصناعة العسكرية.

ولكن الخطر الحقيقي كان داخليا في الاساس ويكمن في المستقبل الاقتصادي القريب.. فقد خرج العراق من حرب الثماني سنوات بخسائر تعادل عدة امثال عوائد النفط التي جناها العراق من النفط طوال تاريخه، وتزيد على مجموع الناتج المحلي للفترة من ٨٠ - ١٩٨٨. وعند وقف القتال وجد العراق نفسه امام ازمة اقتصادية بنيوية.. فقد دمرت المؤسسات والبنى الصناعية وركود الزراعة نتيجة للتجنيد الواسع للأيدي العاملة في الريف وتحول مساحات واسعة من الأراضي الزراعية الى ساحات قتال وخنادق وحقول ألغام.. كل ذلك ولأسباب اخرى زاد من اعتماد النظام على النفط كمصدر شبه وحيد للخروج من الازمة الاقتصادية المتمثلة في تراكم الديون وفوائدها. ولكن القطاع النفطي كان يعاني من مشاكل اعقد.. فاضافة للتدمير الهائل الذي اصاب المنشات النفطية العراقية، كانت عائدات النفط العراقية قد وصلت عند انتهاء الحرب ومعاودة الضخ الى ١٤,٥ مليار دولار ١٣، اي مايعادل ٥٥٪ من عائداته قبيل الحرب عام ١٩٨٠.. بهذه الموارد الشحيحة كان على النظام ان يواجه تبعات الحرب الباهظة مثل اعادة الاعمار وزيادة الاستيراد ومكافحة التضخم وخدمة الديون الاجنبية... اضافة لتغطية نفقات برامج التصنيع العسكري الباهظة التي اعتمدها النظام.

الحرب الى الامام

وكالعادة كان خيار النظام امام هذه المشاكل الداخلية والخارجية هو الهروب الى الامام، من خلال مباغتة النظام الدولي الجديد الضاغط بمغامرة عالمثالثية غير محسوبة تقلب المعادلات وتربك منطق الكبار وتعطي للمغامرين الصغار فرصاً اكثر للابتزاز. وللعوامل الداخلية الضاغطة سيكون الحل هو كما في كل مرة باحالة الازمة الى الخارج من خلال حرب جديدة وحالة طوارئ تعطي لاستمرارية القمع مشروعية جديدة وتعطل اسئلة الداخل بإحالتها الى الخطر الخارجي. ظاهريا كانت مغامرة صدام مع اسرائيل.. فبديل التفوق الجوي الاسرائيلي اتجه مشروع صدام نحو تطوير صناعة الصواريخ بعيدة المدى. ومنذ عام ١٩٨٨ أعلن العراق عن توصله لتطوير صناعة صاروخ سكود بتزويده براس قادر على حمل ٣٠٠ كغم من مواد متفجرة وقادرة على الوصول لمسافة ٩٠٠ كم وفي ديسمبر ١٩٨٩ اعلن عن تطور جديد (تموز) ذي المراحل الثلاث قادر على الوصول لمسافة ١٢٠٠كم. في نفس الشهر اعلن عن (العابد) الذي يصل لمسافة ٢٠٠٠ كم... ومع تطوير صناعة الصواريخ كانت التهديدات منذ ٢ نيسان١٩٩٠ تتجه نحو (حرق نصف اسرائيل) اذا ما اعتدت على العراق.

ولكن الفلسفة (الانقلابية) عند صدام تقوم على عنصر المباغتة، وقد حدد تكتيكها في كلمته خلال القمة الرباعية (ان تخوض المعركة في ساحة مختلفة عن تلك التي اختارها لك العدو).. وكانت هذه الساحة غير المحسوبة هي الكويت التي تبعد عن إسرائيل مسافة ١,٨٧٥ كيلومتر وتفترق عنها بزاوية ١٥٥ درجة.

كل الذرائع التي جمعها النظام في مذكرته التي قدمها وزير الخارجية العراقي طارق عزيز الى الأمين العام للجامعة العربية الشاذلي القليبي في تموز ١٩٩٠، مثل القضم التدريجي للمناطق النفطية العراقية عبر (خط الدوريات) وامتصاص النفط العراقي من قبل الكويت وكذلك سياسة إغراق سوق النفط العالمية بالإنتاج النفطي الخليجي بالشكل الذي يؤثر على أسعار النفط العراقية بمقدار مليار دولا سنويا عن كل دولار تخفيض في سعر النفط.. كل هذه الذرائع التي وصفتها المذكرة العراقية ب (حرب مزدوجة تشنها الكويت ضد العراق لا تقل عن العدوان العسكري المباشر) كانت موجودة قبل ذلك بكثير، وكذلك المطالب العراقية بالمواقع العسكرية في مناطق كويتية. بل ان مقدمات الاحتلال العراقي للكويت كانت موجودة على الارض الكويتية في كل الحقول .. ففي البرلمان والحكومة كتلة من السياسيين الكويتيين ترى في التقارب مع العراق ضمانة لتوازن البلد الصغير الضعيف بين الاشقاء الكبار مقابل النفوذ السعودي... وفي الامن الداخلي تتصرف المخابرات العراقية داخل الكويت كانها تتحرك في المحافظة التاسعة عشرة. وقد اطلعني صحفي كويتي على وثائق حصل عليها من داخل السفارة العراقية تثبت وكان هذه السفارة كانت تتصرف كسلطة ظل موازية، ولديها قائمة باسماء صحفيين ومسؤولين كويتيين مقسمين حسب مواقفهم من النظام العراقي وتشكل رقابة فعلية على كل ما يكتب في الصحف وتقوم بتمويل مؤسسات صحفية كاملة مقابل نشر مواضيع ترسل مباشرة عبر الملحق الصحفي في الكويت.... وفي الاعلام الكويتي كانت حصة صدام تكاد تفوق حصة امير الكويت نفسه... وفي الاقتصاد منح الراسماليون الكويتيون الافضلية الاولى في مناقصات اعادة اعمار العراق...واستند هذا النفوذ الى الخوف من الخطر الايراني والقاعدة الشيعية المتعاطفة مع الخميني... ومع ذلك بدت الكويت في لحظة ازمة (اللقمة) التي لابد منها لتحقيق هدفين: مباغتة (مؤامرة) النظام الدولي الجديد بهجوم وقائي في ساحة لم يضعها في حسابه، وتحقيق حلم التحول الى دولة عالمثالثية كبرى تقابل دولة الشاه السابقة بامتلاك إطلالة بحرية واسعة على ممرات نفط الخليج الى الغرب. وبجمع النفطين سيتحول العراق الى منتج اول يوازي السعودية ويملك احتياطيا يفوق اية دولة في المنطقة.. وستكون الكويت المكافاة الموعودة للجنرالات العائدين من حرب الثماني سنوات دون نتيجة تذكر وللطبقة الصاعدة وعدا بالرفاه الذي انتظرته.... وكالعادة كانت حسابات صدام الارادوية تحاول من خلال هذه المباغتة فرض الاحتلال كامر واقع على نظام دولي جديد يفضل تجنب الحروب وحل الامور بالطريقة السلمية.. ووفق سيناريو الامر الواقع ستحل الأمور مع الغرب بتلبية مصالحه الاستراتيجية من خلال التعامل مع دولة قوية راسخة استطاعت التصدي عسكريا للخطر الإسلامي في أكثر المناطق حساسية، فذلك أفضل من دولة صغيرة عرضة لهزات الجيران الكبار.. ولذلك ذكر صدام السفيرة الامريكية ابريل غلاسبي عند لقائه بها في بغداد ٢٥ - ٧ - ١٩٩٠ (انتم تعرفون انكم لستم الذين حميتم اصدقاءكم خلال الحرب مع ايران.. وانا اجزم لو ان الايرانيين اندفعوا الى المنطقة، لما استطاعت الجيوش الامريكية ان تصدهم وتوقفهم الا باستخدام القنابل النووية.. وهذه ليست نظرة استصغار لكم، وانما مرتبطة بطبيعة الجغرافية وبطبيعة المجتمع الامريكي الذي تجعله لايستطيع ان يتحمل في معركة واحدة (عشرة الاف قتيل). وطمان السفيرة الامريكية الى ان العراق سيقف ضد رفع اسعار النفط خارج الحدود المتفق عليها٢٥ دولارا للبرميل الواحد. وقد جدد هذا التعهد خلال لقائه مع القائم بالاعمال الامريكي جوزيف ويلسون يوم ٦- ٨ - ١٩٩٠... ويستطيع صدام تعويض فقراء العرب الموجوعين من شحة مساعدات الاشقاء الاغنياء، مثل الاردن ومصر واليمن، بتعويضات تضمن سكوتهم، ويطمئن خوف السعودية بتاكيد اتفاقية عدم الاعتداء.. كل شيء سيحل لاحقا بعد تثبيت الامر الواقع الذي تمثل بابتلاع دولة ذات سيادة والغائها من الخارطة فجاة ومن الوجود. الولايات المتحدة والغرب دفعت ارادة صدام حسين نحو التحقق بتزويده بما يحتاج من اسلحة تعزز موقع الوهم عنده ك (اخطر رجل في العالم) وصاحب (رابع جيش في العالم)... ومن حق صدام حسين ان يخرج من لقائه مع السفيرة الامريكية غلاسبي بانطباع ان هناك قبولاً ضمنياً امريكياً لمغامرته في الكويت او بعضا منها في الاقل. فقد اعتبرت السفيرة في حديثها هذا الموضوع شانا عربيا خالصا. وبحسابات بسيطة يعني هذا الجواب لنظام القمع والحروب المباغتة ان من الممكن احتساب المشكلة الكويتية ضمن القضايا الاقليمية المزمنة. وهكذا بدات (ام المعارك).

نصارى العراق ومسلموه

ذاكرة تاريخ مواطنة وجوار ديني رحب

رشيد الخيُون

إذا لم يتعاضد العراقيون ويحتجون احتجاجهم الأكبر، مثلما خرج الأسبان عن بكرة أبيهم رفضاً للإرهاب، وإذالم يعلنها الفقهاء صيحة بوجه الإرهاب لن يسلم شيء من أيادي (شراة الجنة)، لن يسلم مسجد ولا كنيسة ولا معبد ولا منزل ولا بقية حضارة.

بالأمس القريب أفزع شراة الجنة الباكون على الحسين، فوق فزعهم وحزنهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وفجروا الضريح العلوي ولم يبقَ من جسد آية الله محمد باقر الحكيم غير خنصر وخاتم، وفجروا مساجد سنّية وشيعية، وأتوا اليوم لتفجير الكنائس والأديرة. وهم سيأتون على بقية تسامح ديني يفتقد إليه المحيطون، أتوا ليزيلوا فخر المسلمين بتصرف الإمام علي بن أبي طالب عندما أدخله أصحابه إلى باحة بناء للاغتسال، ولما سأل عن المكان قيل له: إنها كنيسة، فامتنع الإمام بالقول: طالما عُبد الله فيها.

سيأتون على محو ذكرى عداس الموصلي وهو يضمد جراح النبي محمد عندما أدمته حجارة عرب ثقيف، وسيلغون ذكرى النجاشي وهو يردّ طلب عمرو بن العاص في بلاطه عندما أتى مبعوثاً من قريش لتسليم المهاجرين، أتوا لمحو نداءات العراقيين من مسلمين ومسيحيين وهم يؤسسون لدولتهم الحديثة، نداءات تعمق الوحدة العراقية وتنبذ تطاول طرف على طرف آخر. يوم (استقبل وفد يضم شباباً من السنّة والشيعة، موكباً مسيحياً كان في طريقه إلى أحد الكنائس للإحتفال بعيد الجسد، فنثروا الورود ورشوا الماء المعطر على الموكب وهتفوا: عاش مجد سيدنا المسيح، عاش إخواننا المسلمون.. عاشت الوحدة العراقية، عاشت الوحدة الوطنية). فكان جواب المسيحيين: (عاش إخواننا المسيحيون، عاش العرب). واستعداداً لتشكيل الدولة الحديثة والعيش بتجاور مريح حرصت كل الأطراف على المشاركة في الأعياد الدينية، ووزعت منشورات في أيار من السنة نفسها ببغداد والموصل على المسيحيين واليهود (تؤكد على وحدة وأخوة كافة الطوائف العراقية وتدعوها باسم الوطن الواحد والمصير الواحد إلى الإتحاد مع المسلمين لتحقيق استقلال العراق).

أشارت الروايات بوضوح إلى أن دخول النصرانية العراق كان بفعل حركة تبشيرية هادئة، بعيداً عن فتوحات الروم البيزنطينيين، وأول المناطق التي تنصرت هي منطقة حدياب، أربيل اليوم. وارتبطت المسيحية بالعراق بمختلف أقوامه القديمة، من سريان وعرب وكرد، وأمتدت من شماله إلى جنوبه، ومن أبرشية فرات ميسان (البصرة) وصلت المسيحية إلى الصين والهند وسقطرى في عرض المحيط الهندي بين الصومال وعدن، وإلى قطر والبحرين، لم ينافسها في جنوبي العراق غير الصابئة المندائيين والمجوسية، والأخيرة كانت ديانة الدولة الساسانية الرسمية آنذاك.عشرون قرناً هو عمر المسيحية ببلاد ما بين النهرين، واجهت خلالها اليسر والعسر تبعاً للظرف السياسي وشخصية الحاكم الفارسي المجوسي أو العربي المسلم.

يذكر لنا النص القرآني وأحداث التاريخ صلات طيبة بين النبي محمد والنصارى. خلدَ القرآن مستنكراً مذبحة النصارى بنجران على يد الملك اليمني ذي نواس: (قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنون شهود). فمَنْ هم المؤمنون غير المصلين في كنيسة نجران، وقد أضرمت النار حولها، وأحرقوا فيها! والمشهد لا يختلف عن مشهد إحراق الكنائس اليوم ببغداد والموصل، إنها رجعة من رجعات التاريخ. لقد أغفل أو تعالى الفاعلون على ما جاء في الآية (ولتجدن أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسّيسين ورهباناً، وأنهم لا يستكبرون). لكنك تجدهم مخلصون ومستميتون في متابعة النص الآتي : (فأقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) رغم زمنية ولحظوية هذا النص وديمومة النص الأول، لأنه يعني حالة دائمة بينما عنى الثانية بحالة طارئة. فمَنْ أحرق هؤلاء بتفجيراتهم غير القسّيسين والرهبان والمصلين صلاتهم في يوم الأحد! المقتولون هم أحفاد القساوسة الذين أوصت بهم هند بنت النعمان قائد الفاتحين المسلمين: (هؤلاء النصارى الذين في أيديكم تحفظونهم، فقال لها: هذا فرض علينا، وقد وصانا به نبينا)(الشابشتي، الديارات).

يحفظ التاريخ الإسلامي المكتوب للنصارى العديد من المناقب مع المسلمين الأوائل. استقبلوا رُسل النبي وأكرموهم، وخبر نجاشي الحبشة معروف وإقامة مأتم على روحه من قبل النبي معروف أيضاً، وموقف مقوقس الإسكندرية غير خاف على أحد، بل هناك مَنْ نقل وصايا نبوية تجاه القبط. والمؤرخون لم يهملوا مأثرة الغلام النصراني الموصلي عداس مع النبي، وهو غلام من نينوى، كان يعمل بخدمة نفر من ثقيف بالطائف، ولما شاهد النبي مكلوماً ومتعباً من إيذاء أهل الطائف اقترب منه، وحدثه عن النبي يونس، وضمد جراحه وسقاه ماءً وأطعمه عنباً، خلافاً لرغبة أسياده الثقفيين (راجع القصة كاملة في تاريخ الأمم والملوك للطبري). وكان ورقة بن نوفل قساً بمكة، مشجعاً للنبي، و(الرسول نهى عن سبه)، وقال في منزلته: (شعرت أني قد رأيت لورقة جنّة أو جنتين). وأكثر من هذا أذن الرسول لنصارى نجران أن يصلوا بصلاتهم في مسجده، وقد علقوا الصلبان في أعناقهم ولبسوا لباس القساوسة، وهم اليوم يمنعون من دخول الحجاز بأكملها، جاء في الرواية (قاموا في مسجد رسول الله يصلون، فقال الرسول: دعوهم، فصلوا إلى المشرق) بعد مرور سبعة سنوات على تغيير القبلة نحو من القدس إلى الكعبة (راجع الحدث الذي سنعود إليه في مقالة أخرى، في سيرة ابن هشام، وأسباب النزول للواحدي وغيرها).

ألم تحضر أمام مفجري بوابات الكنائس والأديرة، ذات التاريخ الضارب بالقدم في أرض الرافدين، واحدة من هذه الشواهد، فيقتلون الأطفال والنساء على عتباتها، فإذا لم يردعهم ويكفهم عن غيهم قرآن ولا قول نبي ولا عاطفة عشرة وجيرة فإلى أي دين وإلى أي مذهب هؤلاء ينتمون؟ ها أنا ذا أتصفح مقالات المذاهب السبعة في الإسلام فلا أجد في أحكامها حكما يوجب إفراغ الأرض من أهل الأديان الأخرى، ولا أجد عند فقهاء المذاهب السبعة المعاصرين مَنْ يدعو إلى تطبيق ما عرفه المتشددون بالشروط العمرية في غير المسلمين.

صفحات أخرى يذكرها مؤرخون سريان أن اتصالات جرت بين العراقيين النصارى والنبي محمد، وأن هناك خبراً يتناقله شيوخ صابئة عن اتصال رئيس كهنتم بالعراق بالنبي محمد أيضاً. ومن أخبار تلك المصادر أن الجاثليق ايشوعياب، رئيس الكنيسة الشرقية في بدايات الإسلام، بعث برسالة وهدايا إلى النبي، حملها إليه أسقف ميسان أو فرات ميسان (البصرة)، لكن وصول المبعوث صادف وفاة النبي، فأوصل ما كان معه إلى الخليفة أبي بكر الصديق (تاريخ الكنيسة الشرقية).

ويذكر ماري بن سليمان (القرن الثاني عشر الميلادي) أن النبي محمد تسلم رسالة رأس الكنيسة الشرقية، وأن ملك الفرس استنكر فعل ذلك، ورد في الرواية: كان الجاثليق (أو الفطرك) يكاتب صاحب شريعة الإسلام، ويهدي له ويسأله الوصاة (هكذا وردت) برعيته في نواحيه، فأجابه إلى ذلك، وكتب إلى أصحابه كتباً بليغة مؤكدة، وبرّه صاحب الشريعة، عليه السلام، ببرّ كان فيه عدة من الإبل وثياب عدنية، وتأتى ذلك إلى ملك الفرس، فأنكر على الفطرك فعله ومكاتبته، وخاصة عند ورود هداياه، فداراه (الجاثليق) إلى أن سلم منه، وعاش إلى أيام عمر بن الخطاب عليه السلام (هكذا وردت)، فكتب له كتاباً مؤكداً بالحفظ والحياطة، وألاّ يؤخذ من إخوانه وخدمه الجزية وأشياعه أيضاً، وهذا الكتاب محتفظ به إلى هذه الغاية((تاريخ الكنيسة الشرقية).

فتحت العهود النبوية والراشدية أفقاً رحباً في التسامح الديني، وكانت أصلاً أعتمده فقهاء المسلمون والخلفاء، ماعدا مَنْ شذ وتشدد في المعاملة، في تأكيد حِسن المعاشرة والجوار المريح، فالإمام أبو حنيفة النعمان يوصي تلميذه السمتي بالقول: (عاشر أهل الأديان بمعاشرتهم)، و ألا يكفي قول القرآن شاهداً على حِسن معاملة الآخر: (اليوم أحلَ لكم الطيبات وطعام الذين أتوا الكتاب حلٌ لكم). وإن عدَ مفجرو الكنائس والأديرة سلمان الفارسي من الصحابة، وهو أحد المقربين من النبي والمؤتمن من قبل عمر بن الخطاب في ولاية المدائن وأحد حواري علي بن أبي طالب، فعليهم أن يصغوا لوصيته في معاملة أهل الأديان الأخرى: (إذا صحبت الصاحب منهم تأكل من طعامه، ويأكل من طعامك، ويركب دابتك، في أن لا تصرفه عن وجه يريده)(أبو يوسف، كتاب الخراج). وإن قالوا: نحن لا نقر بإمامة أبي حنيفة ولا نعترف بصحبة سلمان الفارسي، ولا نقيم لمشورته في حفر الخندق قدراً رغم فضلها في الإسلام، فما عساهم يقولون في وصية النبي محمد؟ قال: (ألا منْ ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته أو انتقصه أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة)(كتاب الخراج).

فهل هناك ظلم أبلغ من إشاعة الرعب والفزع بين عجائز وأطفال وشبان دأبوا على ممارسة طقوسهم في هذه الأرض قبل الإسلام بقرون، وهذا ما شهد به الجاثليق طيمثاوس للخلفاء المسلمين وهو يتحدث إلى رهبان دير مار مارون: (إنهم لم يكرهونا قط على عمل شيء يمس الدين)(مجلة بين النهرين). عشرون قرناً ونصارى العراق يخدمون العراق ثقافة وطباً وترجمة وفلاحة، لم نقرأ كتاب فلسفة أو علم إلا من ترجمتهم، تحملوا، مثل باقي الأديان الأخرى، شروط الفقهاء المتشددين العمرية، وصغروا عند دفع الجزية، تحملوا مزاج أمراء وخلفاء فرضوا بلبس الزنانير، والحرمان من ركوب الخيول ودخول الحمامات، وأمتثلوا للوائح إذلالهم، مثل تعليق شارات الإهانة على أبواب منازلهم. ورغم ذلك ظلوا بعراقهم وعلى دينهم، يتجنبون مواقع الإيذاء والضرر بهم، حتى تطبعوا على الصبر والصمت، وحرصوا على التحصيل العلمي ، فكان منهم في السابق أطباء وعلماء يستظل بظلهم، ولهم في العصر الحديث ما لا يغفله أحد. كان أبرز المحققين الأخوان كوركيس وميخائيل عواد، وأبرز اللغويين بالعربية والقاموسيين الأب أنستانس الكرملي، والأب آدي شير، والأب إغناطيوس الرحماني، والأب أوغسطين مرمرجي، وأبرز المترجمين عبد المسيح وزير، وأبرز الإعلاميين رفائيل بطي، وأبرز المربين متي عقراوي، وأبرز المؤرخين في السريانيات الأب يوسف حبن والاب البير أبونا، وأبرز الماليين يوسف غيمة، وهذا قليل من كثير.